المحاضرة الثالثة :

ميادين الدراسة المقارنة

أ.م.د. علي مجيد البديري
جامعة البصرة / كلية الآداب

يتعلق مدى سعة الميادين البحثية في المقارنة، بمفهوم الأدب المقارن الذي يتبناه الباحث، ففي ضوء هذا الفهم يمكن أنْ تُحَدَدَ مجالاتُ البحث وطريقتُه ، أي تحديد (ماذا نقارن)، و(كيف نقارن). ومن هنا يتضح سبب ضيق ميادين الدراسة المقارنة لدى مدرسة ما، وسعتها لدى مدرسة أخرى. ولذا فمن الضروري جداً أن ينطلق الباحث المقارن في دراسته من وعي نظريٍّ متكاملٍ، وواضحٍ بمفهوم المقارنة ومجالها، وأدواتها الإجرائية .

وقد دأب الباحثون في بيان هذه الميادين على اعتماد ما حددته المدرسة الفرنسية ـ فان تيغم خاصةً ـ من مجالات ، واهمال ما سعت إلى إضافته المدارس الأخرى في هذا الشأن من ميادين أسهمت في توسيع رؤية الأدب المقارن ودوره في معاينة الظواهر الأدبية العالمية المختلفة، وهو ما يشكِّل نقصاً مُخِلَّاً في العرض .

هنا سنحاول توضيح ميادين الدراسة المقارنة في ضوء رؤية توفيقية تفيد مما أنجزته المدارس الثلاث، على أن الأمر يبقى في حدود التعريف بالمشهور من هذه الميادين، ولعل المستقبل سيضيف جديداً لها ، وهو ما تفرضه سنن التطور والتجديد.

تتوزع ميادين الدراسة المقارنة في مجالين رئيسين :[1]

الأول: يضم الدراسات التي تتناول الموضوع، أي ما قد تم انتقاله من موضوعات الآداب خارج حدوده اللغوية، وفيها يتم التأريخ للاقتباسات الأدبية ودراستها وبيان طبيعتها، وهو ما يعني دراسة مظاهر التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة، ويندرج في هذا المجال:

١ـ دراسة تأثير أديب بأديب آخر أو أدب أمة في أدب أمة أخرى: ويعد هذا المجال الأكثر شيوعاً في الدراسات المقارنة، لتعدد وقوعه في الساحة الأدبية، ولا يمكن الخوض في هذا المجال إلا بعد بناء

(١) ينظر في التحديد العام ، من غير تفصيل ، لهذه الميادين : الأدب المقارن: فان تيغم : ٧٤ـ٧٦

معرفةٍ نقدية واسعة بكل ما يتعلق بخصائص الكتابة وجمالياتها لدى كل طرف من أطراف المقارنة، لكي يسهُل تحديدُ مواطن الالتقاء ما بينهما، وتشخيصُ الظواهر الفنية المنتقلة من المؤثر إلى المتأثر، وبيان مديات تفاعل الأديب المتأثر بهذا الوافد وإفادته منه. وأمثلة هذا المجال كثيرة جداً، كدراسة أثر الشاعر الانجليزي ت. س. إليوت بالسياب، أو تأثير الأدب العربي في الأدب الفارسي، ودراسة أثر الشاعر الفرنسي بودلير في شعر أحمد عبد المعطي حجازي ، أو تأثير سان جون بيرس في شعر أدونيس، وتأثير الشعر الياباني في الشعر العربي الحديث، وتأثير بورخيس في قصص محمد خضير، وغيرها .

٢ـ دراسة الأجناس الأدبية والأساليب التعبيرية: ويجب هنا أن يكون الباحث على معرفة دقيقة بخصائص الأجناس الفنية ومزاياها النوعية الفارقة، لكي يتمكن قبل كل شيء من معرفة الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص أو النصوص المراد دراستها، ويتطلب الأمر متابعة دؤوبة من الباحث لما يستجد في هذا المجال من ظواهر فنية أو أشكال إبداعية، مثال ذلك التداخل الفني الحاصل ما بين الأجناس الأدبية المختلفة، إذ أفاد الشعر مثلاً من تقنيات السرد والدراما والسينما والفن التشكيلي وغيرها في تطوير القصيدة، وكذا الأمر مع السرد في تطوير لغته وتقنياته، أو ظهور ما سمي بالنص المفتوح الذي يحمل خصائص مشتركة هجينة لا يمكن في ضوئها وضْعُ هذا النص تحت مظلة جنس أدبي محدد.

ومن أمثلة هذا المجال دراسة وفود الفن القصصي الغربي على أدبنا العربي الحديث، أو دراسة ظروف استقبال قصيدة النثر الفرنسية في الشعر العربي الحديث، والتحولات الحاصلة في مبنى القصيدة العربية إثر ذلك. أو دراسة انتقال القصة القصيرة جداً من الأدب الغربي إلى الأدب العربي بوصفها محاولة للبحث عن نوع سردي جديد، وغيرها من الموضوعات.

أما ما يمكن إضافته ضمن هذا المجال في ضوء التوسعة المنهجية المتحققة من قبل المدرسة الأمريكية، هو دراسة أشكال التنافذ والتأثير المتبادل بين الأجناس الأدبية أو بين الأدب والفنون المختلفة، وكذلك حين تدرس علاقة الأدب أو أحد أجناسه بمقولات علم النفس أو ببعض المفاهيم الفلسفية، أو المقارنة ما بين معالجة الأدب لمشكلة إنسانية ما ومعالجة علم الاجتماع للمشكلة ذاتها.

أما طريقة دراسة الأجناس الأدبية دراسة مقارنة، فيمكن أن تتخذ الخطوات الآتية:[٢]

أولاً ـ تحديد جنس العمل الأدبي ، في ضوء أسلوبه وتقنياته وعناصر بنائه الفني.

ثانياً ـ إثبات التأثير تاريخياً، وهو قد يكون مباشراً أو غير مباشر، وتتطلب هذه الخطوة من الباحث المقارن جهداً كبيراً إن لم يكن الأديب المتأثر قد صرح بعلاقته بالمؤثر.

ثالثاً ـ دراسة مدى التأثر وحركته وتجلياته في النص، وما إذا كانت ملامح النص المؤثر واضحة، وحضوره بارزاً في النص المتأثر أم عمد الكاتب إلى إخفاء ذلك بطريقة إبداعية.

---

(٢) ينظر: الأدب المقارن : ماريوس فرنسوا غويار : ٢٢ ـ ٢٣